

المرجعية الأكاديمية للإسلاموفوبيا في ميزان السنة الصحيحة (1)

د/ نبيل زباني

جامعة الشاذلي بن جديد _ الطارف.

ملخص:

تعتبر الكتابات الأكاديمية عن الإسلام في الغرب هي السبب الرئيس في انتشار الإسلاموفوبيا والتخويف من الإسلام، ولما كانت لهذه الظاهرة انعكاسات خطيرة جدا استوجب الأمر معالجتها من أساسها، وهو وضع تلك الكتابات الأكاديمية في ميزان النقد والتحليل.

Abstract

Academic literature on Islam in Europe and America is a major cause of the spread of Islamophobia. When this phenomenon had serious implications, it was necessary to criticize and evaluate the content of these academic works.

المقدمة:

عرفت الحياة الغربية في السنوات الأخيرة ظاهرة التخويف من الإسلام (الإسلاموفوبيا) والتحذير من خطر انتشاره الواسع في أوروبا وأمريكا بالخصوص، وما رأيناه من القوانين تمنع المظاهر الإسلامية كالمآذن والزي الإسلامي في فرنسا مثال على ذلك، أثار هذه الظاهرة عدد من السياسيين اليمينيين وبعض الإعلاميين ورجال الفكر والفن والثقافة... وكان من نتائجها ترسيخ صورة مشوهة عن الإسلام وشيوع الاعتقاد بأنه دين الإرهاب والعنف، وزاد معدل الكراهية للمسلمين، ومن ثم وجد من يريد الهجوم على أمتنا عسكريا أو ثقافيا المبرر النفسي والسياسي، حتى أصبحنا لا نرى الحروب في هذا العالم ساقطة إلا على المسلمين بذريعة محاربة الإرهاب، ولم نر الاعتداء على المقدسات والرموز الدينية واقعا إلا على مقدسات المسلمين، حتى وصل الأمر إلى الاعتداء على نبي الإسلام والرحمة عليه الصلاة والسلام، الذي سخرت منه بعض الأقلام الحاقدة بطريقة أنتجت عنفا مضادا وأهدر العالم وقتا ثميناً وإمكانيات هامة في معالجة هذا الموضوع..

ويظن البعض أن سبب كل هذا العناء هو بعض السياسيين الذين يصبون إلى تحقيق مكاسب انتخابية، أو بعض الإعلاميين الطامعين في الشهرة والمتقمصين لأدوار المدافعين عن أوطانهم وعن الحضارة الغربية من أجل مكاسب مادية أيضا، لكن الحقيقة أعمق من ذلك بكثير، فما هؤلاء إلا

أفراد من شعوبهم الذين تأثروا بنوع من الناس قدموا أنفسهم كالعلماء متخصصين والدكاترة باحثين يتميزون بالموضوعية والنزاهة والدقة في الحكم، هم بعض الأكاديميين الذين عاشوا في بلادنا وخبروا تراثنا من كل جوانبه وعملوا على نقله لمجتمعاتهم لتعريفهم بالإسلام تاريخاً وفكراً، إنهم المستشرقون الذين بذلوا جهوداً جبارة في هذا المسار، ومن أكبر وأضخم الأعمال العلمية التي قاموا بها هي تأليفهم لدائرة المعارف الإسلامية التي استغرقوا فيها عقوداً من الزمن وجعلوا منها مرجعاً رئيسياً لنخبهم وتباهوا بها على أوسع نطاق واستطاعوا التأثير بها في صناعة الرأي العام والخاص عندهم.

فما هي دائرة المعارف الإسلامية؟ وما هي صورة النبي محمد صلى الله عليه وسلم فيها؟ وكيف أثرت على تفاقم ظاهرة الإسلاموفوبيا اليوم؟ وما مدى التزام كتاب هذه الموسوعة بقواعد البحث العلمي الأكاديمي الدقيق؟ وكيف نتعامل مع تلك الكتابات؟

وللإجابة على هذه الأسئلة قمت بتقسيم هذا الموضوع إلى مقالين تطرقت في هذا المقال الأول إلى الإجابة عن السؤال الأول والمحور الأول من السؤال الثاني الذي يتضمن ثلاثة محاور وخاتمة خاصة بالمقال الأول، وتركت الباقي للمقال الثاني إن شاء الله.

أولاً: التعريف بدائرة المعارف الإسلامية

توجه كثير من الأكاديميين إلى دراسة الحضارة الإسلامية ونقل تفاصيلها إلى طلابهم في مختلف الجامعات الأوروبية منذ نحو قرن ونصف، ثم عملوا على جمع أبحاثهم في مؤلف واحد على شكل موسوعة علمية موحدة (Encyclopedia) وأخذوا قراراً بذلك في المؤتمر العاشر للاستشراق المنعقد في مدينة جنيف بسويسرا عام 1894م، وأشرف على هذا العمل جماعة من عمالقة المستشرقين منهم: الألمان هوتسما (Houtsma) وهو المشرف العام¹، وهارتمان (Hartmann) والإنجليزي أرنولد (Arnold) والفرنسي باسيه (Basset) ...، وصدرت لأول مرة سنة 1913م في أربعة مجلدات ضخمة بثلاث لغات هي الإنجليزية والألمانية والفرنسية، وظل كتاب هذه الدائرة يعتنون بالزيادة عليها وتنقيحها وتجديدها حتى الطبعة الثانية لها التي استمرت من سنة 1954م إلى سنة 1962م بتمويل عدة مؤسسات أوروبية وأمريكية²، وتوالت الطبقات والترجمات لهذه الموسوعة التي تنفذ أعدادها بسرعة، ومن أبرز طبقاتها المترجمة للعربية طبعة حاكم الشارقة سلطان القاسمي بالتعاون مع الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1998م، وبالرغم من أن هذه النسخة تم اختصارها كثيراً إلا أنها صدرت في اثنين وثلاثين مجلداً³.

ينحصر مجال هذه الدائرة في المعارف المتعلقة بناحية واحدة من المعرفة الإنسانية وهي تراث الإسلام وما يتصل به من أعلام وأماكن وعقائد وتشريعات ومصطلحات⁴، واحتوت على أكثر من 9000 مادة علمية محل دراسة وتعريف⁵ من طرف مئات المستشرقين بأسلوب سهل ولغة سليمة إلى حد ما، تم ترتيبها أبجدياً، وبعض هذه المواد تم التطرق له في عشرات الصفحات، كما أن معظمها كان محل اعتراض شديد من طرف علماء الإسلام ومفكره، ومن ذلك اعتراض صاحب المنار الإمام محمد رشيد رضا الذي قال: "هو معجم لفقهِ طائفة من علماء الإفرنج لخدمة ملتهم ودولهم المستعمرة لبلاد المسلمين"⁶، وقال عنها محمد البهي (مدير الثقافة الإسلامية بالأزهر سابقاً): "ومصدر الخطورة في هذا العمل هو أن المستشرقين عبأوا كل قواهم وأقلامهم لإصدار الدائرة وهي مرجع لكثير من المسلمين في دراساتهم على ما فيها من خلط وتحريف وتعصب سافر ضد الإسلام والمسلمين"⁷.

ثانياً: صورة النبي (صلى الله عليه وسلم) في دائرة المعارف الإسلامية.

يفترض من كتاب دائرة المعارف الإسلامية وهم ينقلون سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن يعتمدوا على المصادر والمراجع الإسلامية المتخصصة في السيرة النبوية ويتعاملوا مع مادتها العلمية بأمانة في النقل والتفسير وفق ما دونه أصحابها، ويتركوا للقارئ وحده تقييم هذه السيرة، لكن القارئ لنصوصهم خاصة المطلع مسبقاً على تلك المصادر يجد الكثير من أولئك الكتاب قد زادوا في نصوصهم ما يمثل باللفظ والمعنى رؤيتهم الخاصة لشخصية النبي صلى الله عليه وسلم، تلك الرؤية التي تتلخص في الشخصية العنيفة التي تدل عليها عدة مظاهر تنقسم إلى ثلاثة أقسام (محاور) هي:

_ الطبيعة الحربية العميقة في شخصيته.

_ العدوان على الطوائف الدينية ورفض التعايش معها.

_ التجرد من الإنسانية والغلظة في المعاملة.

المحور الأول: الطبيعة الحربية العميقة في شخصيته.

اهتمت دائرة المعارف بتسجيل مفصل لسيرة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) حيث بلغت المواد المترجمة ذات العلاقة بهذه السيرة إلى المئات، يلاحظ المتأمل في أسلوبها وألفاظها والروايات المدرجة فيها ميلاً واضحاً لرسم شخصية عن النبي (صلى الله عليه وسلم) تتسم بالعنف وفقدان الحوار والميل إلى

الأعمال الحربية واستدراج الخصوم إليها بأتفه الأسباب، وخرق قوانين الحرب المتعلقة بالهدنة والسلام ... يرتسم ذلك للقارئ البسيط من خلال النماذج الآتية:

1 _ الانخراط في خلايا سرية تخريبية لنشر الاضطرابات.

يصور المستشرق فنسنك (A. wensinck)⁸ هذا السلوك عن النبي (صلى الله عليه وسلم) من خلال إيراد رواية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنها يقول فيها: " ... حتى صعدت على البيت (الكعبة) وعليه تمثال صفر (معدن) أو نحاس، فجعلت أزاوله عن يمينه وهن شماله وبين يديه ومن خلفه حتى إذا استمكنت منه قال لي رسول الله (صلى الله عليه وسلم)⁹ اقذف به فقدفت به فتكسر كما تتكسر القوارير، ثم نزلت فانطلقت أنا ورسول الله نستبق حتى توارينا بالبيوت خشية أن يلقانا أحد من الناس"، مادة صنم، إص¹⁰ 1، 375_374/14.

تؤصل هذه الرواية للعنف في شخصية النبي (صلى الله عليه وسلم) في بداية الدعوة الإسلامية بحيث تصور عملاً سرياً له مع علي بن أبي طالب يهدف إلى تحطيم الأصنام وتخريبها ثم التخفي عن قريش على طريقة العصابات التي تعجز عن تحقيق أغراضها بالمواجهة المباشرة فتلجأ إلى الغدر والتخريب ونشر الفوضى والاضطرابات الاجتماعية للانتقام والتشفي، والإجابة العلمية التي تسمح هذه التهمة عن النبي (صلى الله عليه وسلم) وهذا السلوك الذي لا يليق بالرجل الشريف فضلاً بنبي من الأبياء أن المستشرق فنسنك عزي الرواية إلى الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، ج 1 ص 84، ولم ينقل تعليق المحقق شعيب الأرناؤوط الذي ضعف الحديث بسبب جهالة أحد رجال الإسناد وهو أبو مريم الثقفي، ونقل عن الذهبي أيضاً تضعيفه، وفي إسناد الحديث نعيم بن حكيم وهو ضعيف أيضاً، وللحديث سبب ثالث لتضعيفه وهو نكارة متنه من وجهين: أحدها أن المتفق عليه في حادثة تحطيم أصنام الكعبة أنها كانت بعد فتح مكة وليست قبلها، والثانية أن الصنم المصنوع من النحاس لا يمكن أن يتكسر كما تتكسر القوارير كما تقول الرواية، وهذا كاف لبيان ضعفها وكذبها ولا يمكن البناء عليها في تقرير شخصية النبي (صلى الله عليه وسلم).

2 _ اعتبار حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) كلها حياة حرب.

قال المستشرق ليفي دلافيدا (L. della vida)¹¹ عن تاريخ السيرة النبوية: "ولكنه يجب أن يذكر في هذا الصدد أننا لا نتناول التاريخ موضوعاً في إطار من التسلسل التاريخي أو مرتباً وفقاً لخطة موضوعية وإنما نتناول سلسلة من المذكرات الحربية"، مادة السيرة، فقرة 12، إص¹، (445/12).

يلخص المستشرق ليفي دلافيدا لقرائه الطريقة التي ينبغي أن تدرس بها السيرة النبوية، فكل ما فيها من مرحلة الطفولة والشباب والمرحلة المكية (الدعوة السلمية) التين أخذتا 54 سنة من حياة النبي (صلى الله عليه وسلم) أي بنسبة 86%، والمرحلة المدنية وهي مرحلة الدولة الوحيدة التي وقعت فيها الغزوات والتي تمثل 14% من حياته _ ولم تكن كلها غزوات _ وبكل ما في حياته من اهتمام بالجوانب التعبدية كالصلاة والصيام والزكاة والحج، وجوانب اقتصادية اشتغل بها، وأخرى إجتماعية وأسرية أخذت من وقته كثيرا، وأخرى تعليمية وأخلاقية طبعت كل حديثه، كل ذلك لخصه ورآه في نقطة واحدة هي: "مذكرات حربية"، وهذا التلخيص سببه أحد احتمالين:

_ إما أنه لم يقرأ في حياته عن محمد (صلى الله عليه وسلم) غير كتاب المغازي للواقدي، ولم يقرأ القرآن الكريم ولا صحيح البخاري ولا السنن الأربعة ولا كتاب الشمائل النبوية للترمذي ولا السيرة النبوية لابن كثير ... ثم حكم على سيرته بأنها مذكرات حرب، وهذا معيب على رجل أكاديمي يدعي الإحاطة والتقصي ثم يحكم على حياة أعظم رجل في التاريخ من خلال كتاب واحد في موضوع واحد.

_ إما أنه اطلع على تلك الكتب وعرف الكثير عن محمد (صلى الله عليه وسلم) المتعبد والمربي والسياسي والأب والزوج والتاجر والطبيب والحكيم الاجتماعي ... وهو ما تدل عليه تحقیقاته _ لكنه تعامى عنها من أجل توجيه طلابه وحشركم في زاوية واحدة ونحت عقولهم وصناعتها على التمثال الذي يريد، وهذا أقبح من سابقه وأعيب وأنفى للموضوعية التي يصفون بها أنفسهم.

3 _ ميله للحرب وافتعاله لها من دون أسباب.

قال المستشرق ماكدونالد (D.B.macdonald)¹² : "وقد يُشك في أن محمدا رأى أن موقفه يقتضي حرب الكفار حربا متصلة من غير أن يثيروها عليه إلى أن يدخلوا في الإسلام، والأحاديث صريحة في هذا الأمر ... ثم إن قصة كتابة النبي إلى حكام البلاد المحيطة به تبين أن هذا الموقف حيال الناس جميعا كان يخالجه، وأنه تطور على التحقيق عقب وفاته مباشرة عندما زحفت الجيوش الإسلامية إلى خارج الجزيرة"، مادة الجهاد إص1، 188/7_189.

ابتدأ المستشرق فكرته بعبارة تدل على اقتناعه بها، وهي اقتضاء دعوة الإسلام التي جاء بها محمد (صلى الله عليه وسلم) إعلان الحرب على الكفار _ من دون أسباب _ حتى يجبرهم على الدخول في الإسلام مشيرا إلى وجود أحاديث صريحة في الدلالة على ذلك، ولعله يقصد حديث: "أُمِرْتُ أَنْ أَقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ..."¹³، والجواب على هذا الادعاء من السنة الصحيحة في نقطتين:

أولاً: معنى الحديث ليس عاماً كما فهمه المستشرق، بل هو خاص بما قبل فرض الجزية، أما بعد فرض الجزية فللناس دفع الجزية والاحتفاظ بأديانهم المخالفة لدين التوحيد دون أن يتعرض لهم أحد بأدنى سوء أو إكراه أو تضيق¹⁴، وهذا المعنى تؤكد زيادة في صحيح مسلم وهي أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قرأ بعد الحديث قوله تعالى: " {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ} [الغاشية: 21، 22]"¹⁵، وهذا هو الأصل في المسألة أي لا إكراه في الدين، فيحمل الحديث على من بدأ المسلمين بالقتال فيقاتلونهم لذلك.

ثانياً: المتأمل في سنة النبي (صلى الله عليه وسلم) بعين الإنصاف يجد أن الحروب التي شنها قد أكره عليها كما قال الله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ} [البقرة: 216]، ولم تكن خياره الأول لما في ذلك من فداحة التكاليف وعظيم المشقة والخسارة في الأرواح، فكان معظمها دفاعاً عن النفس ودفعاً للظلم، وبعضها كان من أجل تأمين حركة الدعوة الإسلامية وفتح الطريق أمامها، لأن له الحق كل الحق في مقابلة الناس وعرض الإسلام عليهم، وهم أيضاً لهم الحق في سماعه، ولا يجوز لأي أحد أن يصادر هذه الحقوق التي تعترف بها كل المواثيق الدولية في هذا العصر (الحق في التعبير عن الرأي والحق في المعتقد).

4 _ شن الغزوات لأغراض نفسية وسياسية.

ويعتبر المستشرق بول (f. Buhl)¹⁶ أنه إذا كانت للحرب في سيرة النبي (صلى الله عليه وسلم) أسباباً فهي نفسية أو سياسية توسعية لا غير، وبالتالي ينفي ضمناً الأسباب الدفاعية والحقوقية التي كانت سبب كل غزوات النبي (صلى الله عليه وسلم)، فقال: "وفي خريف ذلك العام (9هـ) قرر محمد (صلى الله عليه وسلم) القيام بغزوة واسعة النطاق ضد شمالي شبه الجزيرة، ربما انتقاماً لهزيمة مؤتة وذلك حتى يبقى على ما بات يتمتع به من احترام"، مادة محمد نبي الإسلام، إص3، 9151/30.

الغزوة التي يتحدث عنها المستشرق بول هي غزوة تبوك، وبينما جعل سببها نفسي وهو الجموح نحو الانتقام بعد غزوة حنين التي يعتقد أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) انهزم فيها وفقد بعض مصداقيته، فإن كتب السيرة على اختلاف مستوياتها تتفق على أن سبب الغزوة هو أن هرقل جمع جيشاً كبيراً وأعدده للهجوم على المدينة المنورة، فعزم النبي (صلى الله عليه وسلم) على رد هجمه، وجعل خطته أن يباغت هرقل في أرضه وأن يشعره بقوة المسلمين وشجاعتهم واستبسالهم في الدفاع عن أرضهم، وهو ما تحقق بالفعل حيث انخلعت قلوب الروم بهذه المباغته مما جعلهم يفرون

ويخسرون المعركة¹⁷، ومما يزيد في كشف تحامل المستشرق "بول" ومجانبته للموضوعية بطلان دعواه بانهمزام النبي (صلى الله عليه وسلم) في غزوة حنين، حيث تراوحت أخبار الثقات بين انتصارهم أو انسحابهم حفاظا على أنفسهم أمام جيش قدر بأكثر من مائة ألف محارب، وكان عدد المسلمين ثلاثة آلاف محارب فقط، قال ابن كثير: "أَنَّ خَالِدًا لَمَّا أَخَذَ الرَّايَةَ حَاشَى بِالْقَوْمِ الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى خَلَّصَهُمْ مِنْ أَيْدِي الْكَافِرِينَ مِنَ الرُّومِ وَالْمُسْتَعْرَبَةِ، فَلَمَّا أَصْبَحَ وَحَوَّلَ الْجَيْشَ مَيْمَنَةً وَمَيْسَرَةً، وَمُقَدِّمَةً وَسَاقَةً تَوَهَّمِ الرُّومُ أَنَّ ذَلِكَ عَنْ مَدَدٍ جَاءَ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا حَمَلَ عَلَيْهِمْ خَالِدٌ، هَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ"¹⁸، وعليه فبسبب هذه الغزوة هو دفاعي محض وليس حبا للانتقام أو حفاظا على مكسب من المكاسب الشخصية كما ادعى "بول".

5_ استباحة الحرم والتجروء على القتال.

عبر المستشرق فاير (H.weir)¹⁹ عن هذه التهمة بقوله: "وأحرز النبي أول انتصار له في غزواته بخروجه على عهد الله"، مادة الجاهلية إص 1، 267/6.

ذكر المستشرق هذه العبارة في سياق حديثه عن عادة العرب في الجاهلية الخاصة بوقف الاقتتال في الأشهر الحرم وهو ما سماه ب "عهد الله"، والغزوة التي تحدث عنها هي غزوة بدر، وحين نعلم جميعا أن هذه الغزوة وقعت في شهر رمضان بإجماع المؤرخين، وأن الأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب²⁰، يتبين لنا أن إقحامه لرمضان فيها ناتج عن محاولة لتغليط الناس وتخليطهم بين قداسة شهر الصيام وحرمة القتال في تلك الأشهر الأربعة، ومن ثم الوصول بالعقول الجاهلة إلى استنتاج أن النبي (صلى الله عليه وسلم) أوقع غزوة بدر في شهر يحرم القتال فيه وأنه لا يبالي بشيء من أجل الحرب، ولا يقف عند أي حد من الحدود أو عرف من الأعراف، لكن هيمات أن يكون ذلك صحيحا.

6 _ إكراه الصحابة على القتال.

ومن الهتان الذي يراد به وصف النبي (صلى الله عليه وسلم) بالعنف ما ادعاه المستشرق ركندورف (H.Reckendorf)²¹ من إكراه الصحابة على المشاركة في الغزوات فقال: " نجد الأنصار قد قصروا مساعدتهم أول الأمر على الذود عن الدين ولم يساهموا في الحروب التي شنت في سبيل الدعوة إلا كارهين، بل لم يشترك واحد منهم قط في الحروب الأولى التي وجهت إلى مكة، وكانت قلة حماسهم في

المبادرة إلى الجهاد كثيرا ما تقلق بال النبي (صلى الله عليه وسلم) حتى أثر الاعتماد على عون الله ما دام عون الإنسان ليس بقريب"، مادة الأنصار، إص1، 311/8 _ 312.

ركز ركندورف على اتهام النبي (صلى الله عليه وسلم) بإكراه فئة من الصحابة على القتال وهم الأنصار سكان المدينة المنورة، واختياره لهذه الفئة يسهل تثبيت التهمة في ظنه، لأن الأنصار ليست لهم عداوة مع قريش، ولم يتعرضوا منها لأي أذى، واقتصرت مبايعتهم للنبي (صلى الله عليه وسلم) على حمايته بينهم، فلم يبق أي سبب لمشاركتهم في غزو قريش خارج ديارهم إلا إذا كانوا مكرهين، ويجب على هذه التهمة بحقيقتين قاطعتين:

الأولى: نصوص البيعة الثابتة بالأسانيد الصحيحة تبين أن الأنصار كانوا عالمين بتبعات حمايتهم للنبي (صلى الله عليه وسلم) التي قد تصل إلى مناجزة العرب كلهم، وأن حربهم مع العرب إذا بدأت سوف لن تقتصر على مكان أو زمان دون آخر، وأنهم أقبلوا على هذه الحرب راغبين فيها بل طالبين لها، هذا ما دل عليه كلام سيد الأنصار أسعد بن زرارة أثناء البيعة قال: "رويدا يا أهل يثرب، فإنما لم نضرب إليه أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وإما أنتم قوم تخافون فبينوا ذلك، قالوا: فوالله لا ندع هذه البيعة أبدا"²².

الثانية: مشاركة الأنصار في أول غزوة في الإسلام _ في بدر _ كانت أكبر من مشاركة المهاجرين، فمن كل الجيش الإسلامي وهو 314 رجلا، كان عدد الأنصار 231 رجلا، وعدد المهاجرين 83 رجلا²³، وفي هذا تكذيب قاطع للمستشرق ركندورف الذي نفى مشاركتهم في هذه الغزوة.

7_ توظيف الشعائر الدينية في الحرب للخداع بها.

ومن الإصرار على رسم صورة رجل الحرب في أعتى مراتبها في شخص النبي (صلى الله عليه وسلم) توجيه كل أفعاله في هذا السياق وتأويل كل حركاته وأنفاسه باستهداف الحرب، ومن ذلك اتهامه باستغلال عبادة العمرة وتحويلها إلى حملة عسكرية والخداع بها دون قصد لها في حد ذاتها.

قال المستشرق لمنس (H.lammens)²⁴: "ويبدو أن النبي (صلى الله عليه وسلم) فكر أول الأمر في القيام بمظاهرة عسكرية، فقد كان المفروض أن يسير في عدد متفاوت بين 1400 و1600 من الرجال المسلمين، ولكنه عدل خطته وأعلن أنه انتوى العمرة، وما كان الهدي الذي أخذه معه إلا استكمالاً

للخدعة، وكان المقدر أن يدخل مكة دخول الملوك أو أن يكره قريشا على مفاوضته... ولكن القرشيين لم يخاطروا وأخذوا الحذر فاحتلوا مشارف مكة وما إن دخل النبي الحرم حتى بلغ طلائعهم فارتد إلى الحديبية أمام هذه المقاومة" مادة الحديبية، إص1، 327/7 _ 328.

لا يوصف هذا الكلام إلا بالتعسف والبهتان، كيف لا وكل من له أدنى علم بالقرآن الكريم والسيرة النبوية يعلم بأن حادثة الحديبية التي يتحدث عنها لمنس كان سببها رؤية رآها النبي صلى الله عليه وسلم في المنام أنه يطوف بالكعبة فاعتبرها وحيا من الله تعالى بأداء العمرة، هذا ما دل عليه قول الله تعالى: {لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا} [الفتح: 27]، قال ابن كثير: "كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أُرِيَ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ دَخَلَ مَكَّةَ وَطَافَ بِالْبَيْتِ فَأَخْبَرَ أَصْحَابَهُ بِذَلِكَ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ، فَلَمَّا سَارُوا عَامَ الْحُدَيْبِيَةِ لَمْ يَشْكُ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَنَّ هَذِهِ الرُّؤْيَا تَتَفَسَّرُ..."²⁵، فإن كان لمنس يعود في تدوينه لأحداث السيرة النبوية إلى كتبها الأصلية وفق ما تقتضيه المنهجية العلمية السليمة فإن هذه الكتب خالية من ذلك الادعاء ولا تدل عليه من قريب ولا من بعيد، وإن كان يعود إليها ثم يحرفها ولا يلتزم بالأمانة العلمية أو يعود إلى كتب أصحابه الذين سبقوه إلى التصرف في نصوص السيرة بما يتفق مع أهوائهم ثم يعتبرون أنفسهم باحثين أكاديميين يتميزون بالموضوعية والمصداقية فإنهم لا يخدعون إلا أنفسهم، ولن تكون لهم أي قيمة علمية بين المنصفين، وستبقى الحقائق التي يحاولون تغطيتها ساطعة مثل الشمس مهما استمروا في ذلك الخداع.

_ وعادة الزكاة هي أيضا عند المستشرق شاخت (J.Schacht)²⁶ مجرد حيلة لتغطية نفقات الحروب الكثيرة، قال: "فإن النبي (صلى الله عليه وسلم) لم يستعمل ما يتحصل من جملة هذه الصدقات لمساعدة المحتاجين فحسب بل هو استعمله خصوصا عند الضرورة في الإنفاق على مشروعاته الحربية وفي أغراض سياسية أخرى"، مادة الزكاة، إص1، 355/10 _ 361.

الزكاة هي ركن الإسلام الثالث، حدد القرآن الكريم قيمتها ومصارفها الثمانية²⁷، والتي تدل على مقصدها التضامني وحكمتها في إسعاف الطبقة الاجتماعية الهشة، وقد جاءت السنة الشريفة بالتأكيد والدعم لحق هذه الفئة، ولا يتصور أدنى مطلع على السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم يمكن أن يهضم حق تلك الفئة بأي شكل من الأشكال، حتى رأينا في تاريخ الإسلام القريب من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إقامة الحرب من أجل الزكاة (حروب الردة) وليس الزكاة من أجل الحرب، وبالتالي فالثابت أن النفقات الحربية كانت تمول من التبرعات الحرة الأخرى، وما يمكن أن يكون دليلا

لشاخت على قوله هو مصرف "في سبيل الله" الذي اختلف فيه المفسرون هل يقصد به الجهاد في سبيل الله تعالى أم لا؟ فقد قال بعض المفسرين يقصد به الحج، وقال آخرون يقصد به الجهاد²⁸.

_ ومن قال بأن المقصود به تمويل الجهاد في سبيل الله تعالى فإنه الجهاد بمعناه الواسع الذي يشمل جميع ما يعود على المسلمين بالنفع، قال وهبة الزحيلي: "إن مصرف (في سبيل الله) يراد به الجهاد بمعناه الواسع الذي قرره الفقهاء ... وبهذا لا يقتصر الجهاد على النشاط العسكري وحده"²⁹، وذكر من تلك الأنشطة الدعوة للإسلام، مع ملاحظة أن تمويل هذه الأعمال هو آخر ما ينفق عليه من الزكاة، فلا يكون ذلك إلا بعد سد حاجة المصارف السبعة التي قبلها واكتفائها، لأن الآية الكريمة صدرت المصارف الأولى بحرف اللام (للفقراء والمساكين) واللام تفيد التملك والأحقية، وصدرت المصرف الأخير بالفاء (في سبيل الله) والفاء تفيد الظرفية فقط، وعليه فإن القول بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصرف الزكاة في تمويل مشروعاته الحربية على إطلاقه هو كلام غير دقيق ويدل على تهويل وتحريف في الموضوع.

الخاتمة:

المستنتج من هذا المحور المتعلق برؤية المستشرقين للشخصية النبوية على أنها شخصية حربية بامتياز أنهم لم ينطلقوا من دوافع أكاديمية تقتضي التجرد المسبق من الذاتية والتزام الأمانة في النقل ثم الحكم وفق ذلك، وإنما انطلقوا من أحكام مسبقة متعلقة بصورة محرفة عن شخص النبي صلى الله عليه وسلم كامنة في نفوسهم لم يستطيعوا التحرر منها، ومن أجل إرضاء هذه الصورة ولكي لا تصطدم مع ما يمكن أن يزيلها كان عليهم التصرف في النصوص المنقولة ولي أعناقها بعدة طرق منها:

_ إغفال الروايات الصحيحة والاعتماد على الروايات الضعيفة سندا والمنكرة متنا والمعارضة مع الحقائق العلمية والتاريخية.

_ تعميم بعض الجزئيات التي جاءت إستثناء لمبررات منطقية واعتبارها نمط حياة وعنوان الرسالة.

_ الخلط بين المشتبهات واستعمال القياس مع الفارق وبناء الأحكام على قواعد غير صحيحة

_ الحكم على المقاصد والنيات بطريقة تتعارض بوضوح مع مع الأقوال والأفعال الثابتة وتحميل الأحداث ما لم تحتل.

هذه النتائج تثبت فشل الكثير من المستشرقين في التزامهم بالمنهجية العلمية حينما يتعلق الأمر بترائنا الإسلامي وتهزم مكانتهم العلمية في عيوننا وتضع وصفهم بالأكاديميين بين قوسين كبيرين.

هوامش البحث:

¹ هوتسما (1851-1943) اسمه الكامل مارتن تيدور، أُلِمَ باللغات العربية والفارسية والتركية وقام بتدريسها في جامعة ليدن وأوترخت، وانتخب في المجمع العلمي العربي بدمشق، من كتبه: العقيدة الإسلامية والأشعرية، تحقيق تاريخ اليعقوبي ... ، ينظر: نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1964، 669/2 ، خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1986، 252/5.

² العقيقي، المستشرقون، مرجع سابق، 1108/3.

³ موجز دائرة المعارف الإسلامية، الإصدار الثالث، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس، ومحمد الفندي، مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1998، المقدمة، 1/ح.

⁴ محمد بن قيدة، مباحث السيرة في دائرة المعارف الإسلامية، رسالة دكتوراه تحت إشراف أ د عبد الحميد قوفي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2018م، 38/1.

⁶ محمد رشيد رضا، مجلة المنار، مجلد 34، ص386.

⁷ محمد البهي، المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، مطبعة جامع الأزهر، القاهرة، د ت، ص 36.

⁸ فنسنت أرنولد جان (1882-1939) هولندي الجنسية برع في تعلم وتعليم اللغة العربية، عمل أستاذا لها في جامعة ليدن، من مؤلفاته: مفتاح كنوز السنة والمعجم المفهرس للحديث النبوي (تأليف مشترك)، ينظر: الألام للزركلي (289/1).

⁹ الصلاة والسلام على النبي محمد في نصوص المستشرقين هي من إضافتي.

¹⁰ إص1 تعني الإصدار الأول لدائرة المعارف الإسلامية، وإص2 تعني الإصدار الثاني، وإص3 الإصدار الثالث.

¹¹ ليفي دلافيدا جورجيو (1886-1967)، إيطالي الجنسية يهودي الديانة، اشتغل بالفاتيكان ودرس اللغة العربية كثيرا في جامعة روما، أُلِفَ في فهارس المخطوطات وحقق بعضها منها، ينظر: موسوعة المستشرقين، عبد الرحمان بدوي، ص 246.

¹² ماكدونالك دنكن بلاك (1863/1943م)، مستشرق أمريكي النشأة، تعلم عدة لغات شرقية وشارك في عدة أعمال تبشيرية، كتب كثيرا عن الإسلام، من مؤلفاته: علم الكلام في الإسلام، ينظر: الأعلام للزركلي، 330/2.

¹³ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تح: محمد زهير، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، (105/2).

¹⁴ ينظر: بدر الدين العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت، (183/1).

¹⁵ مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت، (52/1).

¹⁶ بول فرانتس (1932/1850)، مستشرق دانماركي وأستاذ جامعي متخصص في علم الديانات واللغات الشرقية ومنها العربية، من أشهر مؤلفاته: "حياة محمد" و "انتشار الإسلام"، ينظر: المستشرقون للعقيقي (844/2).

¹⁷ ينظر: محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تح: محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م، (125/2)، وابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار السلام، الرياض، دار الفيحاء، دمشق، ط3، 1421هـ، (139/8) السيرة النبوية لأبي شعبة (502/2).

¹⁸ محمد بن إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط1، 1418هـ/1997، (430 /6).

¹⁹ هانس فاير (1981/1909)، مستشرق ألماني درس بالجامعة الألمانية وتخصص في دراسة الديانات والطوائف الشرقية، ألف كتباً في هذا المجال وفي اللغة العربية خصوصاً علم النحو، ينظر: المستشرقون، العقيقي، (806/2).

²⁰ محمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964م، (133/8).

²¹ ركندورف (1924/1863)، مستشرق ألماني وأستاذ جامعي متخصص في النحو العربي والتاريخ الإسلامي، ينظر: العقيقي، المستشرقون، (731/2).

²² أحمد بن حنبل، المسند (348/22) باختصار، وقال المحقق: إسناده صحيح على شرط مسلم، وصححه الألباني في: التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، دار باوزير، مكة، ط1، 2003م، (89/9).

²³ أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الرياض، ط8، 2009م، (354/2).

²⁴ هنري لمنس (1973/1862)، مستشرق وراهب متعصب، بلجيكي الأصل، عاش في فرنسا ودرس اللاهوت والديانات الشرقية في عدة جامعات، من مؤلفاته: مهد الإسلام، القرآن والحديث ... الأعلام للزركلي (99/8).

²⁵ اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط2، 1999م، (356/7).

²⁶ جوزيف شاخت (1969/1902م)، مستشرق ألماني يهودي من أخطر وأشرس مستشرقي القرن الماضي، تعلم العربية جيداً وتخصص في علوم الشريعة والتاريخ الإسلامي، وعمل كأستاذ في عدة جامعات غربية وعربية منها جامعات أمركا ومصر والجزائر، الأعلام للزركلي، (234/8).

²⁷ قال تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَمًا وَالْمَوْلَفَةَ قُلُوبُهُمْ فِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة: 60].

²⁸ تفسير القرطبي، (185/8).

²⁹ وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، ط4، دت، (7930 /10).

المصادر والمراجع:

- 1_ ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار السلام، الرياض، دار الفيحاء، دمشق، ط3، 1421هـ.
- 2_ أحمد بن حنبل، المسند، تح: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط1، 1421هـ/ 2001م.
- 3_ أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، مكتبة العبيكان، الرياض، ط8، 2009م.
- 4_ بدر الدين العيني، عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.
- 5_ خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، دمشق، ط15، 2002م.
- 6_ عبد الرحمان بدوي، موسوعة المستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، ط3، 1993م.
- 7_ محمد أبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، دار القلم، دمشق، ط8، 1427هـ.
- 8_ محمد البهي، المبشرون والمستشرقون في موقفهم من الإسلام، مطبعة جامع الأزهر، القاهرة، دت، ص36.
- 9_ محمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تح: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964م.
- 10_ محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تح: محمد زهير، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.
- 11_ محمد بن إسماعيل بن كثير، البداية والنهاية، تح: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، ط1، 1418هـ/ 1997.
- 12_ محمد بن اسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تح: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة، ط2، 1999م.
- 13_ محمد بن حبان البستي، التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان، تح: الألباني، دار باوزير، مكة، ط1، 2003م.
- 14_ محمد بن سعد، الطبقات الكبرى، تح: محمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1990م.
- 15_ محمد بن قيدة، مباحث السيرة في دائرة المعارف الإسلامية، رسالة دكتوراه تحت إشراف أ د عبد الحميد قوفي، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2018م.
- 16_ محمد رشيد رضا، مجلة المنار، مجلد 34، ص386.
- 17_ مسلم بن الحجاج النيسابوري، صحيح مسلم، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، دت.
- 18_ موجز دائرة المعارف الإسلامية، الإصدار الثالث، ترجمة إبراهيم زكي خورشيد وأحمد الشنتناوي وعبد الحميد يونس، ومحمد الفندي، مركز الشارقة للإبداع الفكري، 1998م.
- 19_ نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1964، 669/2، خير الدين الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 198.
- 20_ وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، دار الفكر، دمشق، ط4، دت.